الفصل العاشر

إمارة ربيعة (أبناء كنز الدولة)

وصلاح الدين الأيوبي في عهد الخلافة الفاطمية

٥٦٤-٥٦٧هـ / ١١٦٨-١١٧١م

واجهت الخلافة الفاطمية اعتداءات الصليبيين الأوربيين الذين أرادوا الاستيلاء على البلاد الإسلامية واستعمارها . وكانت جيوشهم قد أخذت تتوافد على الشام الكبير ومشارف مصر . وأرسل نور الدين زنكي أخاه أسد الدين شيركوه إلى مصر مع جماعة من أهله سنة ٥٦٤هـ ١١٦٨ م لمساعدة الخليفة الفاطمي ، وأصبح أسد الدين وزيرا للعاضد بالله حتى إذا مات تقلد هذا المنصب ابن أخيه صلاح الدين يوسف الأيوبي ، وكان معه في مصر أخوه الأكبر شمس الدولة توران شاه . عندما أصبح صلاح الدين وزيرا للخليفة الفاطمي أراد أن يكون هو المتصرف في كل أمور الدولة ولكن وجد أن هناك من ينافسه في نفوذه .

فقد كان بالإضافة إلى من معه من جنود أتراك وأكراد ، كان هناك جند من السودان يبلغ عددهم خمسين ألفا تحت قيادة زعيم سوداني من أمراء القصر الفاطمي هو مؤتمن الخلافة . فكان كل من صلاح الدين ومؤتمن الخلافة يرى في الآخر منافسا خطرا له ، وقبل كل منهما الآخر على مضض .

كذلك فقد كان صلاح الدين من أهل السنة ، وربما لم يكن راضيا عن الدفاع عن دولة شيعية ، ولهذا فقد كان ينتهز الفرصة للقضاء عليها طالما كان في يده الجيش الكردي التركي الكبير .

وكان صلاح الدين يعرف بأنه طالما كان نور الدين في الشام فإنه قد تسول له نفسه المسير إلى مصر وضمها إليه متى سنحت له الفرصة بذلك . ولهذا فقد كان صلاح الدين يفكر في الأراضي التي سينسحب إليها إذا ما قدم نور الدين للاستيلاء على مصر . ولم يكن هذا الأمر بسر يخفى على أحد . وبينما كان يفكر هو وأهله في الالتجاء إلى بلاد النوبة بوصفها امتدادا طبيعيا للأراضي المصرية أشار عليه عمارة اليمني بأن يستولي على اليمن ، ويجعلها الملتجأ له من جيوش نور الدين ، وبذلك أصبح له خياران أحدهما النوبة والآخر اليمن .

ولكي يضمن انسحابا مأمونا دون خسائر أو عقبات عندما يحين الوقت فقد عزم على القضاء على إمارة كنز الدولة ، تلك الإمارة التي أقامتها قبيلة ربيعة العربية في صعيد مصر وصحراء البجة حتى عيذاب . وكان عليه أيضا أن يمنع أي تحالف ممكن بين جند السودان في القاهرة والقبائل العربية وربيعة في الصعيد حتى لا تشتد المقاومة في المستقبل عندما يتأزم موقفه .

وكان على صلاح الدين ، بوصفه وزير الخلافة الفاطمية ، أن يبذل كل جهد ممكن لصد العدوان الصليبي ، والتفرقة بين خصومه داخل مصر وخارجها .

عرف مؤتمن الخلافة وضع صلاح الدين الحرج ،فقرر على حد قول بعض المؤرخين ، أن يقضي عليه نهائيا ، وذلك بإبلاغ الصليبيين سرا

بخروجه من القاهرة والثورة عليه فيها مع مواجهته في نفس الوقت بالصليبيين من جهة أخرى ، وبذلك ينتهي نفوذه ووزارته .

وعرف صلاح الدين بهذه الاتصالات بين أعدائه في الخارج ومنافسيه في الداخل ، ولذلك فإنه سرعان ما أوقع مؤتمن الخلافة في شركه ، واستطاع القضاء عليه عندما انفرد مع بطانته وجنده ، ثم وجه ضربته إلى جند السودان الذين كانوا بالقاهرة والذين كرهوا قتل صلاح الدين لزعيمهم مؤتمن الخلافة ، فثاروا عليه وأرادوا القضاء على جنده من أكراد وأتراك . وكان جنود صلاح الدين يعرفون كيفية استعمال النفط في القتال ، فيرمون بالنفط المحترق القصور والدور والقلاع فتشتعل هذه المباني بالنار ، وتعم الفوضى ، ويتدافع الناس للخروج مما هم فيه من حريق فيتناولهم جند صلاح الدين بالسيوف والرماح وغيرها فيقضي عليهم . وقد هدد صلاح الدين وأخوه شمس الدولة الخليفة العاضد با لله وهو في قصره يتفرج على القتال الدائر بين السودان والأتراك . وأمر صلاح الدين بإحراق قصر الخليفة الفاطمي بنيران النفط الا أن " زعيم الخلافة " السوداني البشرة أشار نيابة عن الخليفة إلى صلاح الدين بالقضاء على الجند السودانيين وموافقة الخليفة على ذلك . فضعف عضد الجند السودان ، وقويت شوكة الأكراد والأتراك ، فاستطاعوا الإطباق على هؤلاء الجند ، وكسروا شوكتهم ، وقضوا عليهم وعلى من آزرهم من مصريين وأرمن وغيرهم حتى لم تبق لهم قوة يستندون إليها. وبذلك فاز صلاح الدين بهذه الجولة التي جعلت الخليفة الفاطمي تحت رحمته لا يملك لنفسه من الأمر شيئا .

ولم يطل بقاء العاضد با لله في الحياة بعد هذه الواقعة ، إذ قضى نحبه بعد ذلك بأيام قليلة ، وخلا منصب الخلافة الفاطمية بمصر. وكان صلاح

الدين يتطلع إلى هذا اليوم ليحتل هذا الملك ، وهذا ما فعله عند خلو الخلافة. وقد كان موقف صلاح الدين في القاهرة قويا، ولم يعد هناك ما يهدده ، أو من يزاحمه في السلطان .وسادت قبضته على الأراضي المصرية وأصبح الزعيم السياسي الذي لا ينازعه أحد فيها .